المبحث الثاني
الإمام الشافعي وأثره في المدارس النظامية

قامت المدارس النظامية على فقه الإمام الشافعي وتراثه في الأصول والفقه، كما كان لتراثه تأثير كبير في المدارس النظامية؛ ولذلك رأيت من المناسب أن نعرِّف بهذا الإمام الكبير والذي يعتبر من أقرب الأئمة الأربعة لبيت رسول الله ρ، فهو قرشي ولربما كان من أسباب اختيار نظام الملك للمذهب الشافعي قربه من النسب النبوي حيث إن من أهداف المدارس النظامية تقويض المذهب الشيعي الباطني الذي تبنته الدولة الفاطمية والتي يزعم مؤسسوها بأنهم من أهل البيت وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم كما أن لمكانة الإمام الشافعي في المذهب السني سبباً في اختيار تراثه وفقهه حيث إن المالكية يفتخرون به لكونه من تلاميذ الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل يجله ويحترمه ويعتبره من شيوخه، كما أن الشافعي تتلمذ على يدي محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة فهو واسطة العقد بين المذاهب السنية الأربعة الشهيرة، كما أن نزعته النقلية وانتصاره للدليل، وحِدَّة ذكائه واستخدامه للعقل في إقامة الحجة على الخصوم وما تميزت به كتابته في أصول الفقه وبيان الخاص والعام والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل... إلخ ربما كانت من أسباب اعتماد تراثه في المدارس النظامية.

أولاً: اسمه ونسبه وشيء من سيرته:

1- اسمه ونسبه: هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قص بن كلاب مرة بن كعب بن لؤي بن غالب أبو عبد الله القرشي الشافعي المكي: نسيب رسول الله ρ وابن عمه [1].

قال النووي رحمه الله: الشافعيرقرشي مطلبي بإجماع أهل النقل من جميع الطوائف وأمه أزدية[2]: وينسب إلى جده شافع بن السائب صحابي صغير لقي النبي ρ وهو شاب مترعرع ويروى أن النبي ρ كان ذات يوم في فسطاط إذ جاءه السائب بن عبيد ومعه ابنه - يعني شافع بن السائب - فنظر النبي ρ إليه فقال: من سعادة المرء أن يشبه أباه[3].

2- لقبه: يلقب - رحمه الله - بناصر الحديث وذلك لما اشتهر عنه من نصرته للحديث وحرصه على اتباعه.

3- مولده ونشأته: اتفق المؤرخون على أنه ولد عام 150هـ وهو العام الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة رحمه الله [4].

4- مكان ولادته: اختلفت الروايات في مكان ولادته فأشهرها أنه ولد بغزة، وقيل: بعسقلان

(1) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 19.
(2) تهذيب الأسماء واللغات (144/1).
(3) الإصابة (11/2) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم 5301.
(4) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 21.

وقيل: باليمن [1]. وقد قال ابن حجر في ذلك: إنه لا مخالفة بين الأقوال لأن عسقلان هي الأصل في قديم الزمان وهي وغزة متقاربتان وعسقلان هي المدينة، فحيث قال الشافعي غزة أراد القرية وحيث قال عسقلان أراد المدينة. والذي يجمع بين الأقوال أنه ولد بغزة عسقلان ولما بلغ سنتين حولته أمه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن لأنها كانت أزدية فنزلت عندهم، فلما بلغ عشراً خافت على نسبه الشريف أن ينسى ويضيع فَحَوَّلته إلى مكة[2]، وبهذا الجمع يذهب اللبس في اختلاف الروايات والله أعلم [3].

5- نشأته وطلبه للعلم: قال الشافعي: كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن معها ما تعطي المعلم قد رضي من أن أخلفه إذا قام فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة وكانت دارنا في شعب الخيف فكنت أكتب في العظم، فإذا كثر طرحته في جرة عظيمة [4]. وقد واظب الإمام الشافعي على طلب العلم، فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل: ابن ثمان عشرة أذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي وعنى بالشعر واللغة وحفظ شعر الهذليين وأقام عندهم نحوا من عشر سنين وقيل عشرين سنة فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها وسمع الحديث الكثير على جماعة المشايخ والأئمة وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه فأعجبته قراءته وهمته وأخذ عنه علم الحجازيين بعد أخذه عن مسلم بن خالد الزنجي وروى عن خلق كثير، وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبل عن ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ρ [5].

وأما اهتمامه بالفقه فيروى أن الذي أشار عليه بتعلم الفقه هو شيخه مسلم بن خالد الزنجي، فقد قال الشافعي خرجت أطلب النحو والأدب فلقيني مسلم بن خالد فقال: يا فتى من أين أنت؟ قلت: من أهل مكة، قال: وأين منزلك بها؟ قلت: بشعب الخيف قال: من أي قبيلة أنت؟ قلت: من ولد عبد مناف قال: بخ بخ لقد شرفك الله في الدنيا والآخرة ألا جعلت فهمك هذا في الفقه فكان؟ أحسن بك[6]. فالشافعي بعد أن حفظ القرآن رحل إلى هذيل ومنازلها في أطراف مكة ثم بعد أن حفظ أشعارهم ولغتهم حول همته إلى الفقه وتتلمذ على مفتي مكة مسلم بن خالد الزنجي، فلما أتقن ما عنده رحل رحلته الأولى إلى المدينة [7].

6- رحلته إلى المدينة ولقاؤه بالإمام مالك: يحكي الشافعي قصة ذهابه إلى مالك فيقول: خرجت من مكة فلزمت هُذيلاً في البادية أتعلم كلامها وآخذ بلغتها وكانت أفصح العرب، فأقمت معهم أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر أيام الناس فمر بي رجل من

(1) المصدر نفسه ص 21.
(2) توالي التأسيس ص 51 - 52 بتصرف.
(3) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 23.
(4) توالي التأسيس ص 54.
(5) البداية والنهاية (263/10) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 24.
(6) مناقب البيهقي (97/1).
(7) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 26.

الزهريين فقال لي: يا أبا عبد الله عز علي أن لا تكون في العلم والفقه هذه الفصاحة والبلاغة. قلت: من بقي ممن يقصد؟ فقال: مالك بن أنس سيد المسلمين، قال: فوقع ذلك في قلبي فعمدت إلى الموطأ فاستعرته من رجل بمكة وحفظته ثم دخلت على والي مكة فأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس فقدمت المدينة فبلغت الكتاب، فلما قرأ والى المدينة الكتاب قال: يا بني إن مشى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي إلى باب مالك فإني لست أرى الذل حتى أقف على بابه. فقلت: إن رأى الأمير أن يوجه إليه ليحضر فقال: هيهات. ليت أني إن ركبت أنا ومن معي وأصابنا تراب العقيق يقضي حاجتنا. فواعدته العصر وقصدناه فتقدم رجل وقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير: قولي لمولاك: إنني بالباب فدخلت فأبطأت، ثم خرجت، فقالت: إن مولاي يقول: إن كانت مسألة فارفعها إلى في رقعة حتى يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف. فقال لها: قولي له إن معي كتاب والي مكة في مهم، فدخلت، ثم خرجت وفي يدها كرسي فوضعته فإذا بمالك شيخ طوال قد خرج وعليه المهابة وهو متطليس فدفع إليه الوالي الكتاب فبلغ إلى قوله: إن هذا الرجل شريف من أمره وحاله فتحدثه. فرمى الكتاب من يده وقال: يا سبحان الله قد صار علم رسول الله ρ يؤخذ بالوسائل قال: فرأيت الوالي وهو يهابه أن يكلمه فتقدمت إليه فقلت: أصلحك الله إني رجل مطلبي من حالي وقصتي فلما أن سمع كلامي نظر إليّ ساعة وكانت لمالك فراسة فقال لي ما اسمك؟ فقال محمد قال: يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن. فقلت نعم وكرامة. فقال إذا كان غدا تجيء من يقرأ لك الموطأ. فقلت: إني أقرأه ظاهراً. قال فغدوت إليه وابتدأت فكلما تهيبت مالكاً وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتي وإعرابي. يقول يا فتى زد حتى قرأته عليه في أيام يسيرة ثم قمت بالمدينة إلى أن توفي مالك بن أنس ثم ذكر خروجه إلى اليمن [1]. وفي نصيحة الرجل الزهري للإمام الشافعي دروس وعبر منها: أهمية النصيحة في تغيير مسار الإنسان نحو الأفضل وكم كان لأثر هذه النصيحة على الشافعي والأمة الإسلامية.

7- رحلته إلى اليمن: لما ولي بعض الطالبين اليمن مشت أمه إلى بني عمه ليكلموه ليصحبه معه إلى اليمن فوافق ولم يكن عندها ما تعطيه فرهنت دارها بستة عشر ديناراً وأعطته إياها [2]، يقول الشافعي عن ذهابه إلى اليمن. فتحملت بها معه فلما قدمنا اليمن استعملني على عمل فَحُمِدت فيه فزاد في عملي وقدم العمال مكة في رجب فأثنوا علي وصار لي بذلك ذكر فقدمت من اليمن فلقيت ابن أبي يحيى وقد كنت أجالسه فسلمت عليه فوبخني وقال: تجالسوننا وتضعون فإذا شرع لأحدكم شيء دخل فيه أو نحو هذا من الكلام. قال فتركته. ثم لقيت سفيان بن عيينه فسلمت عليه فرحب بي وقال: قد بلغني ولا يتك فما أحسن ما انتشر عنك وما أديت كل الذي لله تعالى عليك ولا تعد قال: فجاءت موعظة سفيان إياي أبلغ مما ضع ابن أبي يحيى ثم ذكر رجوعه إلى اليمن وذكر بعض أعماله وحرصه على إشاعة العدل وحرصه على طلب العلم حتى شاع ذكره بين الناس وربما حسده لذلك أهل الدنيا أو خافوا من ميل الناس له أن يحدث انقسام في الدولة ولذلك كتب بعض قواد هارون الرشيد إلى هارون كتابا

(1) المناقب للبيهقي (102/1، 103) توالى التأسيس ص 53 - 56.

(2) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 29.

يخوفونه فيه من شأن العلويين وأن عندهم رجلاً يقال لـه محمد بن إدريس يعمل بلسانه ما لا يعمل المقاتل بسيفه فإن كانت لك بالحجاز حاجة فاحملهم منها، فحمل مقيداً إلى العراق مع بعض العلويين [1].

8- محنته: جاء في بعض الروايات عند ابن عبد البرقال: دخل الشافعي ومن معه من العلويين على الرشيد وكان دخولهم واحداً واحداً يكلم أحدهم وهم يسمعون من خلف الستر. قال الشافعي إلى أن بقي حدث علوي من أهل المدينة وأنا فقال للعلوي أأنت الخارج علينا والزاعم أني لا أصلح للخلافة؟ فقال العلوي: أعوذ بالله أن أدعي ذلك أو أقولـه قال: فأمر بضرب عنقه فقال لـه العلوي إن كان لابد من قتلى فأنظرني أكتب إلى أمي بالمدينة فهي عجوز لم تعلم بخبري فأمر بقتله فقتل، ثم قدمت: ومحمد بن الحسن جالس معه فقال لي مثل ما قال للفتى فقلت يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي وإنما دخلت في القوم بغياً علي وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف من قصي ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه، والقاضي يعرف ذلك أنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. فقال لي: أنت محمد بن إدريس؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين قال: ما ذكرك لي محمد بن الحسن. ثم عطف على محمد بن الحسن فقال يا محمد: ما يقول هذا هو كما يقولـه قال: بلى ولـه من العلم محل كبير وليس الذي رفع عليه من شأنه. قال فخذه إليك حتى أنظر في أمره [2].

قال ابن كثير: فحمل الشافعي - على بغل في قيد إلى بغداد فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره أربع وثلاثون سنة فاجتمع بالرشيد فتناظر هو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد وأحسن القول فيه محمد بن الحسن وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه وأنزله محمد بن الحسن عنده وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة أو سنتين وأكرمه محمد بن الحسن وكتب الشافعي عنه وقر بعير [3].

وكان الإمام الشافعي معظماً لمحمد بن الحسن تمام التعظيم مع ما يجري بينهما من مناظرات وخلافات مشهورة بين المذهبين فالشافعي رحمه الله على مذهب أهل الحديث ومحمد بن الحسن رحمه الله على مذهب أهل الرأي ومعلوم ما بين المذهبين من اختلاف[4]، ومع هذا يقول الشافعي عن محمد بن الحسن: ما رأيت أحد يسأل عن مسألة فيها نظر إلا رأيت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن [5].

9- رجوعه إلى مكة وحضور الإمام أحمد إلى مجالسه: بعدما حصل الشافعي على ما استطاع من علم العراق وعلم الحجاز شعر أن الوقت حان لنشر ما عنده من علم فقرر العودة إلى مكة بعد أن ذاع ذكره واشتهر أمره وعلا قدره وبدأ يلقي دروسه في الحرم المكي وكان الحجاج من ديار الإسلام قد سمعوا عن فتى قريش قد بهر الناس علمه وفقهه فكانوا يحرصون على السماع منه

(1) المناقب للبيهقي (105/1 - 107) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 30.
(2) الانتقاء ص 97 منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 33.
(3) البداية والنهاية نقلاً عن منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 33.
(4) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 33.
(5) مناقب البيهقي (159/1).

فشاع بذلك ذكره في البلاد [1] والتقى به في هذه المدة كثير من العلماء وكانوا يعجبون بسعة اطلاعه واستحضاره للدليل وحرصه على متابعة السنة وعظم فقهه واستنباطه وكانوا يعجبون من أصوله التي أصلها وقواعده التي قعدها وكلها مأخوذة من الكتاب والسنة وأكثرها لم يسمع به من قبل ومن أشهر من سمع منه هذه المرة الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - الذي وفد حاجاً إلى مكة ودخل المسجد الحرام للالتقاء بكبار العلماء والمحدثين وكان أشهرهم سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي لكنه وجد شيئاً في حلقة الشافعي لم يجده عند غيره لذلك بدأ الإمام بالاقتراب من حلقة الإمام الشافعي فرأى منه شيئاً جديداً غير رواية الأحاديث رأى فيه فقها وفهما ثاقبين وقواعد لم يكن سمعها من قبل فبدأ بحضور حلقته وترك من أجل ذلك حلقات كبار المشايخ قال محمد بن الفضل الفراء: سمعت أبي يقول: حججت مع أحمد بن حنبل، فنزلت في مكان واحد معه فخرج باكراً وخرجت معه فدرت المسجد فلم أره في مجلس ابن عيينة ولا غيره حتى وجدته جالساً مع أعرابي [2]. فقلت يا أبا عبد الله تركت ابن عيينه وجئت إلى هذا فقال لي: أسكت إنك إن فاتك حديث يعلو وجدته بنزول وإن فاتك عقل هذا أخاف ألا تجده، ما رأيت أحد أفقه في كتاب الله من هذا الفتى، قلت: من هذا؟ قال: محمد بن إدريس [3].

وعن إسحاق بن راهوية قال: كنت مع أحمد بمكة فقال لي: تعال حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله: فأراني الشافعي [4]. وتواثقت العلاقة بين الفقيهين العظيمين الكبيرين ومدح الإمام أحمد الشافعي فقد روى البيهقي بسنده عن أبي إسماعيل الترمذي قال: سمعت أحمد بن حنبل وذكر الشافعي فقال: لقد كان يذب عن الآثار [5]، وبسنده عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قال أبي قال لنا الشافعي: إذا صح عندكم الحديث عن النبي ρ فقولوا حتى أذهب إليه [6]، وبسنده عن أحمد بن أبي عثمان قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول كان أحسن أمر الشافعي أنه كان إذا سمع الخبر لم يكن عنده قال به وترك قوله [7].

10- رحلته الثانية إلى العراق: رحل الشافعي إلى العراق عام 195هـ فقد روى البيهقي بسنده عن أبي ثور قال: لما ورد الشافعي العراق جاءني حسين الكرابيسي وكان يختلف معي إلى أصحاب الرأي فقال: قد ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه قم بنا نسخر منه، فقام وذهبنا حتى دخلنا عليه، فسأله الحسين عن مسألة فلم يزل الشافعي يقول: قال الله عز وجل وقال رسول الله ρ حتى أظلم علينا البيت فتركنا بدعتنا واتبعناه وهناك التقي به أحمد بن حنبل وكان قد التقى به قبل ذلك وأخذ عنه وأثنى عليه وقال: كانت أقضيتنا أصحاب الحديث في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع حتى رأينا الشافعي وكان أفقه

(1) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 35.
(2) شبه الشافعي بالأعرابي لأنه كان يلبس لباسهم لإقامته بينهم أو لفصاحته وحفظه كلامهم والله أعلم.
(3) توالي التأسيس ص 56.
(4) صفة الصفوة (250/2).
(5) المناقب للبيهقي (471/1).
(6) المناقب للبيهقي (476/1).
(7) المصدر نفسه (476/1) منهج الشافعي في إثبات العقيدة ص 43.

الناس في كتاب الله وسنة رسوله الله ρ ما كان يكفيه قليل الطلب في الحديث [1] وعن الحسن بن محمد الزعفراني قال: كان أصحاب الحديث رقوداً حتى أيقظهم الشافعي[2]، وقال إبراهيم الحربي - رحمه الله تعالى -: قدم الشافعي بغداد وفي المسجد الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي فلما كان في الجمعة الثانية لم يثبت منها إلا ثلاث حلقات أو أربع حلقات، ولم تكن إقامته في العراق مستمرة بل كان يتردد بينها وبين مكة قال الحسن بن محمد الزعفراني: قدم علينا الشافعي سنة خمس وتسعين ومائة فأقام عندنا سنتين، ثم خرج إلى مكة، ثم قدم علينا سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام عندنا أشهراً ثم خرج إلى مصر[3].

11- رحلته إلى مصر: كانت نفسه تتوق إلى مصر رغماً عنها وكان لا يدري حقيقة هذا الرغبة ولكنه استسلم أخيراً لقضاء الله وخرج من العراق إلى مصر وفي ذلك يقول:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ::: ومن دونها أرض المهامه والقفر
فوالله ما أدري أللفوز والغنى ::: أساق إليها أم أساق إلى القبر[4]

وحين قدم الشافعي رحمه الله مصر ذهب إلى جامع عمرو بن العاص وتحدث به لأول مرة أحبه الناس وتعلَّقوا به [5]. قال هارون بن سعيد الأيلي: ما رأيت مثل الشافعي قدم علينا مصر فقيل قدم رجل من قريش فجئناه وهو يصلي فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجهاً منه، فلما تكلم ما رأينا أحسن كلاماً منه فافتتنا به[6]، وهناك برز للناس علم الشافعي وسعة اطلاعه واستفاد هو من رحلاته وعمد إلى كتبه التي كتبها من قبل يراجعها ويصحح ما أخطأ فيه ورجع عن كثير من أقواله وأظهر مذهبه الجديد وأعاد تأليف كتبه ولازمه كثير من العلماء الذين أثر فيهم علم الشافعي ومنهجه وحرصه على متابعة السنة[7]. ومما مضى من سيرة الشافعي نستفيد الدروس الآتية:

- في نصيحة الرجل الزهري خير عظيم ترتب عليه للشافعي والأمة، فتظهر أهمية النصح الصادق لخير الأمة، وأهمية الاستجابة لهذا النصح الكريم.
- في والدة الشافعي نموذج للأم الصالحة التي يستحق الاقتداء بها وتقديرها، فرغم فقرها وحاجتها فإننا نراها كيف تبذل وتضحي في سبيل تعليم ابنها وقد أقرّ الله عينها، فرأت ثمار تعبها في هذا الإمام العظيم.
- التلطف وحسن الخلق في النصح وحسن المدخل عندما قال الرجل الزهري: يا أبا عبد الله يعز علي ألا تكون في العلم والفقه هذه الفصاحة.

12- وفاته: مكث الشافعي آخر عمره مشتغلاً بنشر العلم والتصنيف في مصر حتى أضر ذلك

(1) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 37.
(2) المصدر نفسه ص 37.
(3) توالي التأسيس ص 72 منهج الإمام الشافعي ص 37.
(4) ديوان الشافعي ص 47.
(5) مناقب البيهقي (463/1).
(6) المناقب للبيهقي (284/2).
(7) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 39.

بجسده، فأصيب بالبواسير التي كانت تسبب له خروج الدم ولكن حبه للعلم جعله يؤثر طلبه ونشره والتصنيف فيه على نفسه واستمر هكذا حتى وافته منية الموت في آخر شهر رجب سنة 204هـ رحمه الله رحمةً واسعة [1]. وقال المزني: دخلت على الشافعي رحمه الله في مرضه الذي مات فيه فقلت له: كيف أصبحت يا أستاذ؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً ولكأس المنية شارباً، وعلى الله وارداً، ولسوء عملي ملاقياً ما أدري أروحي إلى الجنة فأهنيها؟ أم إلى النار فأعزيها؟ ثم رمى بطرفه إلى السماء واستعبر وأنشد:

إليك إله الخلق أرفع رغبتي ::: وإن كنت يا ذا المن والجود مجرما
ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ::: جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ::: بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تزل ::: تجود وتعفو منة وتكرماً
فلولاك لم يصمد لإبليس عابد ::: فكيف وقد أغوى صفيك آدماً
فإن تعف عني تعف عن متمرد ::: ظلوم غشوم ما يزايل مأثما
وإن تنتقم مني فلست بآيس ::: ولو أدخلت نفسي بجرمي جهنما
فجرمي عظيم من قديم وحادث ::: وعفوك يا ذا العفو أعلا وأجسما [2]

ثانياً: أصول الشافعي في إثبات العقيدة:

سار الإمام الشافعي على منهج أهل السنة في إثبات العقيدة ومن أهم أصول الشافعي في هذا المجال ما يلي:

الأصل الأول: الالتزام بالكتاب والسنة وتقديمها على العقل والأخذ بظاهر الكتاب والسنة أول أصل من أصول أهل السنة والجماعة؛ وذلك لأنهما المصدران الوحيدان لتلقي العقيدة الإسلامية ولا يجوز للمسلم أن يستبدل بهما غيرهما فما أثبتاه وجب أن يثبته المسلم وما نفياه وجب على المسلم نفيه ولا هدى ولا صلاح إلا بالتمسك بهما[3]. قال تعالى: {**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**} [الأحزاب: 36]. وهذا شأن المؤمنين بالله ورسوله ولذلك نفى الله الإيمان عمن أبى وتكبر عن متابعة النبي ρ فقال سبحانه{**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**} [النساء: 65]. وأمر الله المؤمنين عند التنازع بأن يردوا ما تنازعوا فيه إليهما فإن فيهما حلاً لكل ما تنازع فيه الناس فقال تعالى: {**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**} [النساء: 59] والشافعي رحمه الله أحد أئمة السلف ذهب في ذلك مذهب السلف الصالح فهو يرى أن الكتاب والسنة هما مصدر التشريع واليهما يرجع المفتي، ولذلك تراه عند إثبات مفردات العقيدة يبدأ بذكر النصوص الواردة في ذلك من الكتاب والسنة ويحتج بما جاء بهما على المخالف ولم نسمع أنه تعرض رحمه الله إلى تأويلها وإلى ردها بشيء من حجج أهل

(1) المناقب للبيهقي (291/2) منهج الإمام الشافعي ص 39.
(2) ديوان الشافعي ص 78، آداب الشافعي ص 77.
(3) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 80.

الكلام [1].

ويرى الإمام الشافعي رحمه الله أن السنة مثل القرآن في التشريع فما ثبت في السنة كالذي ثبت في القرآن وما حرم في السنة كالذي حرم في القرآن والسبب في ذلك أنهما جميعاً من الله [2]، وبين رحمه الله أن سنة النبي ρ هي الحكمة التي قرنها الله مع كتابه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**} [آل عمران: 164].

وقال رحمه الله: كل ما سن رسول الله مما ليس فيه كتاب وفيما كتبنا في كتابنا هذا - الرسالة - من ذكر ما مَنَّ الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة دليل على أن الحكمة سنة رسول الله ρ، ثم بين منزلة السنة من القرآن وأنها شارحة له مبينة لمراد الله فيها أنها قد تستقل ببعض الأحكام وإن لم يرد لها أصل في الكتاب فقال: مع ما ذكرنا مما افترض الله على خلقه من طاعة رسوله وبين من موضعه الذي وضعه الله به من دينه الدليل على أن البيان في الفرائض المنصوصة في كتاب الله من أحد هذه الوجوه: منها: ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه فلم يُحتج مع التزيل فيه إلى غيره.

ومنها: ما أتى الكتاب على غاية البيان في فرضه، وافترض طاعة رسوله فبين رسول الله عن الله: كيف فرضه وعلى من فرضه ومتى يزول بعضه ويثبت ويجب.

ومنها: ما بينه عن سنة نبيه بلا نص كتاب وكل شيء منها بيان في كتاب الله. فكل من قبل عن الله فرائضه في كتابه قبل عن رسول الله ρ سننه بفرض الله طاعة رسوله على خلقه وأن ينتهوا إلى حكمه، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل: لما افترض الله من طاعته [3] ثم ذكر الأدلة على حجية السنة ومما لا شك فيه أن هذا الأصل قد درّس في المدارس النظامية والتي كان من نظم مناهجها كتب الإمام الشافعي.

الأصل الثاني: خبر الآحاد ومكانته عند الإمام الشافعي: قسم علماء الحديث والأصول حديث النبي ρ إلى قسمين: **متواتر. وآحاد.**

فالمتواتر: ما رواه عدد كبير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب عن مثلهم وأسندوه إلى شيء محسوس.

والآحاد: هو ما فقد شروط المتواتر أو أحدهما[4]. وهو من حيث القبول والرد على أقسام فمنه المقبول ومنه المردود على حسب حال رواته من حيث العدالة وعدمها وغير ذلك من شروط قبول الرواية وقد ذكر الشافعي - رحمه الله - هذا التقسيم وسماه علم عامة وعلم خاصة. فقال: قال لي قائل: ما العلم وما يجب على الناس في العلم فقلت له العلم علمان: علم عامة لا يسع بالغاً غير مغلوب على عقله

(1) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 81.
(2) المصدر نفسه ص 86.
(3) الرسالة ص 32، 33.
(4) نخبة الفكر ص 4 - 8 الإحكام للآمدي (31/2).

جهله قال: ومثل ماذا؟ قلت مثل الصلوات الخمس وأن لله على الناس صوم شهر رمضان وحجّ البيت إذا استطاعوه وزكاة في أموالهم، وأنه حرم الزنا، والقتل والسرقة، والخمر وما كان في معنى هذا مما كُلِّفَ العباد أن يعقلوه ويعملوه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم وأن يكفوا عنه ما حرم عليهم منه وهذا الصنف موجود نصاً في كتاب الله وموجود عاماً عند أهل الإسلام ينقله عوامهم عمن مضى من عوامهم يحكونه عن رسول الله ρ ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل ولا يجوز فيه التنازع قال فما الوجه الثاني؟ قلت له: ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هي من أخبار الخاصة لا أخبار العامة وما كان منه يحمل التأويل ويستدرك قياساً [1].

شروط صحة الحديث وقبوله عند الشافعي:

وضع الإمام الشافعي في كتابه الرسالة شروطاً في قبول الحديث هي أصل الشروط التي وضعها علماء المصطلح وهي:

أ - اتصال السند. ب - عدالة الرواة. ج - أن يكون الراوي ضابطا.

د - سلامته من الشذوذ؛ وهو مخالفة الراوي لمن هو أوثق منه.

هـ - سلامته من العلة القادحة [2].

وهذه الشروط ذكرها الإمام الشافعي في كتابه الرسالة وإن لم يرتبها كما رتبها علماء الحديث بعده مما يدل على عظم فهمه لعلم الحديث ولذلك فقد ملأ كتبه بالأدلة على حجية السنة والرد على من أنكر حجيتها أو احتج ببعضها وأنكر حجية البعض الآخر [3].

العمل بخبر الواحد: أجمع الصحابة رضي الله عنهم وممن بعدهم من التابعين وسلف الأمة على وجوب العمل بخبر الواحد سواء من قال: إنه يفيد العلم أو يفيد الظن، ولم يخالف في هذا إلا من لا اعتبار بخلافه كبعض المعتزلة والرافضة[4] وقد نصر الإمام الشافعي رحمه الله مذهب السلف في العمل بخبر الواحد في جميع مسائل الدين، ويدخل في ذلك أمور العقيدة ولم يرد عنه أنه فرق بين أمور العقيدة وبقية المسائل بل روي عنه أنه قال في حديث الرؤية لما سأله سعيد بن أسد ما تقول في حديث الرؤية فقال لي: يا بن أسد أقضى عليَّ حبيبُ أو مِتَ ُ: أن كل حديث يصح عن رسول الله ρ فإني أقول به وإن لم يبلغني [5].

الأصل الثالث: تعظيمه لفهم الصحابة واتباعه لهم - رضي الله عنه:

وقال في ذلك: ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر عمن سمعهما مقطوع إلا باتباعهما فإذا

(1) الرسالة ص 357 - 359.
(2) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 109.
(3) المصدر نفسه ص 109.
(4) إرشاد الفحول ص 48 - 49.
(5) المناقب للبيهقي (421/1).

لم يكن موجودين، فالعذر عمن سمعهما مقطوع إلا باتباعهما فإذا لم يكن صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله ρ أو واحد منهم ثم كان قول الأئمة؛ أبي بكر أو عمر أو عثمان إذا صرنا فيه إلى التقليد أحب إلينا[1]. إلى أن قال: والعلم طبقات شتى:

الأولى: الكتاب والسنة إذا ثبتت السنة الثانية: الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة.

الثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبي ولا نعلم له مخالفاً منهم.

الرابعة: اختلاف أصحاب النبي صلى الله وسلم في ذلك.

الخامسة: القياس على بعض الطبقات ولا يصار إلى شيء غير الكتاب والسنة وهما موجودان وإنما يؤخذ العلم من أعلا [2].

ومما يدل على إتباعه للصحابة رضي الله عنهم وتعظيمه لفهمهم ما ذكره البيهقي من كلام الشافعي - رحمه الله - في الرسالة القديمة رواية الحسن بن محمد الزعفراني حيث يقول الشافعي: وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ρ في القرآن والتوراة والإنجيل وسبق لهم على لسان رسول الله ρ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم فرحمهم الله وهنَّاهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلا منازل الصديقين والشهداء والصالحين هم أدّوْا إلينا سنن رسول الله ρ وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله ρ عاماً وخاصاً وعزماً وإرشاداً، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا[3].

الأصل الرابع: مجانبة أهل الأهواء والبدع والكلام وذمهم:

حذر السلف - رحمهم الله - من مجالسة أهل البدع والأهواء وأوجبوا هجرهم وأخرجوهم من مجالسهم وسار على هذا النهج الإمام الشافعي وقد روي أن سبب تركه بغداد وهجرته إلى مصر ظهور المعتزلة ببدعهم وتسلطهم على الناس وقد كانت الدولة خاضعة لهم، ومن أقواله رحمه الله في هجر المبتدعة قوله: ما ناظرت أحداً علمت أنه مقيم على بدعة [4].

قال البيهقي: وهذا لأن المقيم على البدعة قلما يرجع بالمناظرة عن بدعته وإنما كان يناظر من يرجو رجوعه إلى الحق إذا بينه له وبالله التوفيق [5].

وقد جعل الشافعي - رحمه الله - علامة الإيمان متابعة السنة، وعلامة البدعة مخالفة السنة ولم ينظر إلى ما سوى ذلك مما يدلس به المبتدعة على الناس بما يظهرونه من شعوذة ودجل ويسمونه كرامة [6] فعن يونس بن عبد الأعلى قال: قلت لمحمد بن إدريس الشافعي قال صاحبنا الليث بن سعد:

(1) الأم (265/7) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 129.
(2) الأم (265/7).
(3) إعلام الموقعين(80/1) منهج الشافعي في إثبات العقيدة ص 130.
(4) مناقب البيهقي (175/1).
(5) مناقب البيهقي (175/1) منهج الشافعي في إثبات العقيدة ص 138.
(6) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 139.

لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء ما قبلته. فقال الشافعي: أما إنه قصر. لو رأيته يمشي في الهواء ما قبلته [1].

وقد ذم الإمام الشافعي علم الكلام فقال فيه: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء والله ما توهمته قط ولأن يبتلى المرء بجميع ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتليه الله بالكلام[2]. وقال: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويجعلوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادي عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام [3]. هذه بعض الأصول في إثبات العقيدة التي نظَّر لها الإمام الشافعي وكتب عنها ولا شك أن المدارس النظامية اعتمدتها في مدارسها.

ثالثاً: عقيدته في الإيمان ومنهجه في إثباتها:

1- حقيقة الإيمان ودخول الأعمال في مسماه: اتفق أهل السنة والجماعة على أن الإيمان اعتقاد بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي كما استفاض ذلك في كتبهم[4]، ومن تتبع ما روى لنا عن الإمام الشافعي رحمه الله وما حكاه لنا الأئمة في كتبهم من أقواله يجد مذهبه مطابقاً لمذهب السلف - رحمهم الله - تمام المطابقة فهو يقول إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص [5]، قال الحافظ اللالكائي قال الشافعي في كتاب الأم في باب النية في الصلاة: نحتج بأنه لا يجزئ صلاة إلا بنية لحديث عمر بن الخطاب رعن النبي ρ: إنما الأعمال بالنيات. ثم قال: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم: أن - الإيمان: قول وعمل ونية ولا يجزي واحد من الثلاثة إلا بالآخر [6]. وروى أبو نعيم في كتابه الحلية بسنده عن الربيع بن سليمان قال سأل رجل من أهل بلخ الشافعي عن الإيمان؟ فقال للرجل: فما تقول أنت فيه قال أقول: إن الإيمان قول. قال ومن أين قلت، قال: من قول الله تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**} [البقرة: 277]. فصار الواو فصلاً بين الإيمان والعمل فالإيمان قول والأعمال شرائعه. فقال الشافعي: وعندك الواو فصل قال نعم قال فإذا كنت تعبد إلهين إلها في المشرق وإلها في المغرب لأن الله تعالى يقول: {**رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ**} [الرحمن: 17]. فغضب الرجل وقال: سبحان الله أجعلتني وثنياً فقال الشافعي: بل أنت جعلت نفسك كذلك قال كيف قال بزعمك أن الواو فصل: فقال الرجل فإني استغفر الله مما قلت بل لا أعبد إلا رباً واحداً ولا أقول بعد اليوم إن الواو فصل بل أقول إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، قال الربيع فأنفق على باب الشافعي مالاً عظيماً وجمع كتب الشافعي وخرج من مصر سُنياً [7].

2- زيادة الإيمان ونقصانه: قال الربيع سمعت الشافعي يقول: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص،

(1) مناقب البيهقي (470/1).
(2) مناقب البيهقي (454/1).
(3) الغوي في شرح السنة (218/1).
(4) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 155.
(5) فتح الباري (47/1).
(6) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعية (886/5).
(7) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 164.

ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ثم تلا هذه الآية{**وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً**} [المدثر: 31]. [1] وممن نقل القول عن الإمام الشافعي رحمه الله - بالزيادة والنقصان ابن أبي حاتم، والحافظ اللالكائي، والنووي، وابن تيمية والذهبي وابن القيم وابن حجر رحمهم الله كلهم نقل عن الإمام الشافعي القول بزيادة الإيمان ونقصانه، بل نقل بعضهم أن الشافعي حكى الإجماع على ذلك من السلف، كابن تيمية وابن رجب [2].

3- حكم مرتكب الكبيرة: يرى الإمام الشافعي أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإسلام بذنبه وأنه إن تاب تاب الله عليه وإن أقيم عليه الحد فهو كفارة له وإن مات مصراً على ذنبه فهو إلى الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه إلا أنه لا يخلد في النار [3]. والله أعلم.

رابعاً: توحيد الألوهية:

يرى الإمام الشافعي أن توحيد الألوهية هو إفراد الله بالعبادة هو حقيقة التوحيد فمن أتى به فقد أدى حق الله تبارك وتعالى عليه لأنه متضمن للإقرار بربوبية الله على خلقه وللإيمان بأسمائه وصفاته ويرى أن هذا النوع هو الذي قاتل النبي - ρ - الناس من أجله ولولا أنه حقيقة دين الإسلام لما قاتل النبي ρ وهم يقرون بربوبية الله سبحانه وتعالى على خلقه [4]، ولهذا لما جاء رجل إلى المزني وهو من كبار تلاميذ الإمام الشافعي وسأله عن شيء من الكلام قال له: إني أكره هذا بل أنهى عنه كما نهى عنه الإمام الشافعي لقد سمعت الشافعي يقول: سئل مالك عن الكلام والتوحيد فقال: محال أن نظن بالنبي ρ أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد [5]. والتوحيد ما قاله النبي ρ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله [6]، فما عصم به الدم والمال حقيقة التوحيد [7].

1- الحكمة من خلق الجن والإنس: قال الشافعي: قال الله تبارك وتعالى:{**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**} [الذاريات: 56] قال الشافعي: خلق الله الخلق لعبادته [8] وقال في موضع آخر: وأنزل الله عز وجل فيما يثبته به إذا ضاق من أذاهم - المشركين -{**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**} ففرض عليه إبلاغهم وعبادته.. وأبان ذلك في غير آية من كتابه ولم يأمره بعزلتهم [9]، وأنزل عليه{**قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**} [سورة الكافرون]. فيتبين من كلام الشافعي - أن الحكمة من خلق الجن والإنس وإرسال الرسل إفراد الله سبحانه بالعبادة[10] وقال في تفسير قوله تعالى{**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**}[القيامة: 36] قال: لم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمت أن السدى الذي لا يؤمر ولا ينهى

(1) الحلية (115/9).
(2) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 173.
(3) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 205.
(4) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 241.
(5) المصدر نفسه ص 242.
(6) مسلم 21، 22.
(7) سير أعلام النبلاء (26/10).
(8) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 243.
(9) الأم (159/4 - 160).
(10) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 243.

.[1]

2- تسوية القبر: قال الإمام الشافعي: وأحب أن لا يزاد في القبر من غيره، وليس بأن يكون فيه تراب من غيره بأس إذا زيد فيه تراب من غيره ارتفع جداً وإنما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبراً أو نحوه [2]، وهذا الذي ذكره الإمام الشافعي رحمه الله هو السنة وقد دلت النصوص على تحريم رفع القبر، منها حديث أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ρ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً إلا سويته[3].

3- البناء على القبور وتجصيصها: قال الشافعي: وأحب أن لا يبنى ولا يجصص، فإن ذلك يشبه الزينة والخيلاء وليس الموت موضع واحد منها، ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة.. وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما يبنى فيها فلم أر الفقهاء يعيبون ذلك. قال وأكره وطء القبر والجلوس والاتكاء عليه [4]، ثم ساق بسنده عن أبي هريرةقال: لأن أجلس على جمرة فتحرق ردائي ثم قميص ثم إزاري ثم تفضي إلى جلدي أحب إلي من أن أجلس على قبر امرئ مسلم [5].

4- بناء المساجد على القبور: قال الإمام الشافعي: وأكره أن يبنى على القبر مسجد وأن يسوى أو يصلى عليه وهو غير مسوى أو يصلى إليه وإن صلى إليه أجزأه وقد أساء [6] أخبرنا مالك أن رسول الله ρ قال: قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقى دينان في جزيرة العرب[7]. هذا رأي الإمام الشافعي في مسألة بناء المساجد على القبور فهو يكره ذلك ومعنى الكراهة هنا - الله أعلم - للتحريم، وهو ما دلت عليه النصوص الصريحة التي لعنت من فعل ذلك، وقد علل سبب ذلك إلى ثبوت النهي عن ذلك بالنسبة وإلى الخوف من تعظيم القبور مما قد يقع بسبب المعظم إلى الغلو المؤدي إلى الشرك ثم تكلم عن حكم الصلاة على القبور فكرهها وعلل ذلك بنجاسة المقابر [8].

5- زيارة القبور: قال الشافعي: ولا بأس بزيارة القبور وساق بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ρ قال: نهيتكم عن زيارة القبور فزورها ولا تقولوا هجراً [9]. قال: ولكن لا يقال عندها هجر من القول وذلك بالدعاء بالويل والثبور والنياحة، فأما إذا زرت تستغفر للميت ويرق قلبك

(1) الرسالة ص 25.
(2) شرح النووي على مسلم (666/2).
(3) صحيح مسلم مع شرح النووي (335/2).
(4) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 258.
(5) صحيح مسلم (667/1).
(6) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 261.
(7) موطأ مالك (892/2) مرسلاً.
(8) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 261.
(9) مسلم (672/2).

وتذكر أمور الآخرة فهذا مما لا أكرهه [1].

6- رأى الإمام الشافعي في الحلف بغير الله: يمكن تلخيص رأي الإمام الشافعي في الحلف بما يأتي:

- كراهية الحلف مطلقاً وقد دل على ذلك الكتاب والسنة.
- أن من حلف بالله أو باسم من أسمائه فحنث فعليه الكفارة.
- أن الحلف بغير الله مكروه.
- أن من حلف بغير الله فحنث فلا كفارة عليه لأنهما ليست يميناً.
- جواز الحلف بالله واستحبابه إذا كان في طاعة كالجهاد ونحوه. وسواء فهمت الكراهة على التنزيه أو على التحريم فقد كره الإمام الشافعي الحلف بغير الله [2].

خامساً: طريقة الشافعي في الاستدلال على وجود الله:

روى أبو نعيم بسنده مناظرة حدثت بينه وبين بشر المريسي بحضرة هارون الرشيد. قال بشر: أخبرني ما الدليل على أن الله تعالى واحد؟ فقال الشافعي: يا بشر ما تدري من لسان الخواص فأكلمك على لسانهم [3]، إلا أنه لا بد لي أن أجيبك على مقدارك من حيث أنت الدليل عليه به ومنه وإليه واختلاف الأصوات من المصوت إذا كان المحرك واحداً واختلاف الصور دليل على أنه واحد[4].

وعدم الضد في الكل على الدوام دليل على أنه واحد [5]، وأربع نيران مختلفان في جسد واحد متفقات، الدوام على تركيبه في استقامة الشكل دليل على أن الله تعالى واحد[6]، وأربعة طبائع مختلفات في الخافقين أضداد غير أشكال مؤلفات على صلاح الأحوال دليل على أن الله واحد [7]. قال

(1) الأم (278/1).

(2) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 271، 272.

(3) الخواص عند الإمام الشافعي هم علماء السنة أهل الحديث والأثر وليس علماء الكلام فإن بشراً المريسي من أهل الكلام ويعرف لسانهم ولكن الذي لا يعلمه بشر هو طريقه السلف في الاستدلال لذلك ذكر له دليل الآيات المشهور.

(4) يعني أن آلات الصوت والكلام في الإنسان من لسان وأسنان وشفتين وحلق وحنجرة وحبال صوتية وقوة دافعة للهواء واحدة في كل بني آدم ومع ذلك تجد بين الأفراد اختلافاً كبيراً بل نجد الاختلاف في ذلك بين الوالد وأبنائه فمن الذي فرق بين الأصوات بهذا الشكل الدقيق الذي لا نجد اثنين مهما كانت قرابتهما متفقين في صوتهما فهذا يدل على وجود الله ووحدانيته في الربوبية.

(5) قوله: وعدم الضد في الكل على الدوام معناه أن لإنسان مع ما فيه تغير وتبدل من حال إلى حال فهو قد كان نطفة ثم علقة ثم تطور إلى أن خرج وصار طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ومع ما يعتريه في حياته من مرض وصحة وسمن وهزال ومع ذلك فالإنسان هو هو لم يتغير صوته ولم تتغير صورته.

(6) وتفسيره أن في البدن نيرانا أربعة أحدها: نار الشهوة وثانيها حرارة الغضب، وثالثها الحرارة القائمة بأعضاء الغذاء ورابعها الحرارة الغريزية المتولدة في قلبه وهي الحرارة المؤثرة التي يتم بها أمر الحياة، فهذه الأنواع الأربعة من الحرارة: نيران مختلفة بالماهية ثم إنها اجتمعت في بدن الإنسان تبقى كل واحدة منها على صفتها المخصوصة وطبيعتها المخصوصة وهي كامنة في بدن الإنسان لا تظهر إلا عند الحاجة إليها ثم إنها مع اختلافها وتبيانها متوافقة على تحصيل مصلحة الإنسان وموجبة لاستقامة سلامة ذلك الجسد.

(7) وتفسيره أن أبدان الحيوانات على قول الأطباء متولدة من الأرض والماء والهواء والنار ثم إنها أضداد متغايرة متنافرة متعاندة بطبائعها فاجتماعها في البدن الواحد لا بد وأن يكون بقدرة قادر وتدبير مدبر قدير.

تعالى: {**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**} [البقرة: 164].

وروي عن الشافعي أنه قال: استقبلني سبعة عشر زنديقاً في طريق غزة فقالوا ما الدليل على الصانع؟ فقلت لهم: إن ذكرت دليلاً شافياً هل تؤمنون قالوا: نعم، قلت ورق الفرصاد [1] طعمها ولونها وريحها سواء، فيأكلها دود القز فيخرج من جوفها الإبرسيم، ويأكلها النحل فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاه فيخرج من جوفها البعر فالطبع واحد وإن كان موجباً عندك فيجب أن يوجب شيئاً واحداً؛ لأن الحقيقية الواحدة لا توجب إلا شيئاً واحداً ولا توجب متضادات متنافرة ومن جوز هذا كان عن المنقول خارجاً وفي التيه والجاً، فانظر كيف تغيرت الحالات عليها فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر يحول عليها الأحوال ويغير التيارات، قال فبهتوا ثم قالوا: لقد أتيت بالعجب فآمنوا وحسن إيمانهم.

وقال الشافعي لقد أتيت قلعة حصينة ملساء ولا فرجة فيها ظاهرة كالفضة وباطنها كالذهب وجدرانها حصينة محكمة ثم رأيت الجدار ينشق فيخرج من القلعة حيوان سميع بصير مصوت، فعلمت ضرورة أن الطبيعة لا تقدر على ذلك وأنه فعل صانع حكيم، فالقلعة هي البيضة والحيوان هو الدجاجة [2]. وكان رحمه الله كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

فيـــا عجبـــاً كيـــف يعصـــى الإلـــه ::: أم كيـــــف يجحـــــده الجاحـــــد
ولله فـــــي كـــــل تحريكـــــة ::: وتســـــكينة أبـــــداً شـــــاهد
وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة ::: تـــدل علـــى أنـــه واحـــد [3]

سادساً: توحيد الأسماء والصفات:

قال الشافعي في أول خطبة الرسالة: الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه [4]، فبين رحمه الله - أن الله موصوف بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ρ [5]، فبين رحمه الله - أن الله موصوف بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ρ [6]، ومن هذا النص وغيره نعرف مذهب الشافعي فقد ذكر أبو يعلى بسنده عن يونس بن عبد الأعلى المصري قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي يقول وقد سئل عن صفات الله وما ينبغي أن يؤمن به فقال: لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه ρ أمته لا يسع أحداً قامت عليه الحجة ردها لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله ρ القول بها فيما روى عنه العدل فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو بالله كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبرة فمعذور

(1) الفرصاد: التوت انظر لسان العرب (333/3).
(2) مفيد العلوم للقزويني ص 25، 26.
(3) المصدر نفسه ص 26
(4) المناقب للبيهقي (109/2).
(5) الرسالة ص 7، 8
(6) المصدر نفسه.

بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر.. فإن هذه المعاني التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ρ مما لا يدرك حقيقته بالفكر والرؤية فلا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها، فإن كان الوارد بذلك خبراً يقوم في الفهم مقام المشاهدة في السماع وجبت الدينونة على سامعه بحقيقته والشهادة عليه كما عاين وسمع من رسول الله ρ ولكن يثبت هذه الصفات وينفي التشبيه كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذكره فقال:{**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**} [الشورى: 11].

وقال ابن كثير : وقد روي عن الربيع وغير واحد من رؤوس أصحابه ما يدل على أنه كان يمر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف على طريقة السلف [1]، ومما سبق يتضح لنا مذهب الشافعي رحمه الله في الباب ويتخلص في القواعد الآتية:

الأولى: يثبت لله جميع الأسماء والصفات التي نطق بها القرآن أو دلت عليها السنة الصحيحة أثباتاً بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل على حد قوله تعالى:{**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**}.

الثانية: ينزه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة خلقه مع إثبات حقيقة هذه الصفات.

الثالث: التوقف عن الخوض فيما لا مجال للعقل فيه من اليأس وقطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات كما روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي إسحاق بن محمد قال سمعت الشافعي يقول: إن للعقل حدًّا ينتهي إليه كما أن للبصر حدًّا ينتهي إليه [2].

إن الإمام الشافعي يؤمن بجميع ما وصف الله سبحانه وتعالى به نفسه أو وصفه به رسوله ρ على مذهب السلف وأنه كان يمر بآيات الصفات كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف [3]. قال الربيع بن سليمان سألت الشافعي رحمه الله عن صفات الله تعالى فقال: حرام على العقول أن تمثل الله تعالى وعلى الأوهام أن تحده وعلى الظنون أن تقطع وعلى النفوس أن تفكر وعلى الضمائر أن تعمق وعلى الخواطر أن تحيط وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام [4] قال رحمه الله: آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله [5].

سابعاً: عقيدته في الصحابة:

قال الشافعي رحمه الله: وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ρ في القرآن والتوراة والإنجيل - يشير إلى قوله تعالى:{**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى**

(1) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 335.
(2) آداب الشافعي ومناقبه ص 271.
(3) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 387.
(4) مجموع الفتاوى نقلاً عن منهج الإمام الشافعي ص 388.
(5) المصدر نفسه ص 388.

عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [الفتح: 29] وسبق لهم على لسان رسول الله ρ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله وهنّاهم بما آتاهم من ذلك أعلا منازل الصديقين والشهداء والصالحين هم أدوا إلينا سنن رسول الله ρ وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعملوا ما أراد رسول الله ρ عاماً وخاصاً وعزماً وإرشاداً وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا ومن أدركنا ممن نرضى أو حكي لنا عنه ببلدنا وما صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ρ فيه سنة إلى قولهم أن اجتمعوا وقول بعضهم أن تفرقوا فهكذا نقول ولم تخرج من أقاويلهم وإن قال واحد منهم ولا يخالفه أحد غيره أخذنا بقوله [1] وفي هذا النص تعظيم عظيم للصحابة ومعرفته لحقهم ولعلو منزلتهم في الإسلام وهو ما يعتقده كل أهل السنة والجماعة[2].

وقال رحمه الله: ما أرى أن الناس ابتلوا بشتم أصحاب رسول الله ρ إلا ليزيدهم لله بذلك ثوابا عند انقطاع عملهم وفي رواية الربيع بمعناه وقال : إلا ليجري الله عز وجل لهم الحسنات وهم أموات [3]، ولا شك أن هذا حاصل لهم بإذن الله لأنه الله توعد من اغتاب المسلمين أو سبهم بالأخذ من حسناته إلى من سبهم كما في حديث المفلس وفيه: إن رسول الله ρ سأل أصحابه عن المفلس فقالوا: المفلس فينا من لا دينار له ولا درهم فقال ρ المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام، كأمثال الجبال ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ثم يلقي في النار [4]، فإذا كان هذا ثابتاً لعامة المسلمين فثبوته لصفوتهم وخيرهم وأفضلهم من باب أولى [5].

1- فضل الخلفاء الراشدين ودرجتهم بين الصحابة: قال رحمه الله في فضل الخلفاء الراشدين ودرجتهم بين الصحابة: قال رحمه الله في فضل الخلفاء الراشدين ودرجتهم بين الصحابة أفضل الناس بعد رسول الله ρ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم [6]، وقال: التفضيل يبدأ بأبي بكر وعمر، وعثمان وعلي[7]، وقال الربيع بن سليمان سمعت الشافعي يقول في التفضيل: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي[8].

2- سكوته عن ما شجر بين الصحابة: ومن اعتقاده رحمه الله في أصحاب رسول الله ρ سكوته عن كل ما شجر بينهم رضي الله عنهم وروى رحمه الله بسنده أن عمر بن عبد العزيز سئل عن قتلى صفين فقال: تلك دماء طهر الله منها يدي فلا أحب أن أخضب لساني بها. قال الشافعي - رحمه الله

(1) مناقب الشافعي (442/1 - 443).
(2) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 446.
(3) مناقب البيهقي (441/1) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيد ص 446.
(4) مسلم، كتاب البر (1997/4).
(5) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 447.
(6) مناقب البيهقي (433/1).
(7) المصدر نفسه (432/1).
(8) المصدر نفسه (432/1).

- معلقاً على هذا القول: هذا حسن جميل لأن سكوت الإنسان عم لا يعنيه هو الصواب [1]، وكان رحمه الله يقول للربيع: أقبل مني ثلاثة أشياء لا تخض في أصحاب النبي ρ فإن خصمك النبي ρ يوم القيامة، ولا تشتغل بالكلام فإني أطلعت من أهل الكلام على أمر عظيم ولا تشتغل بالنجوم فإنه يجر إلى التعطيل [2].

3- موقفه من أصحاب الفرق البدعية والشيعة الرافضة: قال البويطي سألت الشافعي أصلى خلف الرافضي؟ قال: لا تصلِّ خلف الرافضي ولا القدري ولا المرجئي. قلت صفهم لنا. قال: من قال الإيمان قول فهو مرجئ ومن قال: إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامين رافضي، ومن جعل المشيئة إلى نفسه فهو قدري [3]، وقال أبو حاتم سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: سمعت الشافعي يقول: أجيز شهادة أهل الأهواء كلهم إلا الرافضة فإنهم يشهد بعضهم لبعض [4]، وكان الشافعي إذا ذكر الرافضة عابهم أشد العيب فيقول شر عصابة [5]، وقال: لم أر أحداً أشهد بالزور من الرافضة وقال في الرافضي يحضر الوقعة: ولا يعط من الفيء شيئاً؛ لأن الله تعالى ذكر آية الفيء ثم قال: {**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ**} [الحشر: 109]، فمن لم يقل بها لم يستحق.

قال القرطبي: هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظاً من الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم وأن من سبهم أو واحداً منهم أو أعتقد فيهم شرًّا أنه لا حق له في الفيء روي ذلك عن مالك وغيره قال مالك: من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد ρ أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين ثم قرأ {**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ**} [6]. ولعل الإمام الشافعي - رحمه الله - أخذ هذا القول عن الإمام مالك فهو شيخه كما هو معلوم [7].

4- الشافعي واتهامه بمذهب الشيعة الرافضة: ومع هذا الوضوح في عقيدة الإمام الشافعي وبعده عن مذهب الشيعة الرافضة وتبديعه لهم ورده لشهادتهم ومنعه من الصلاة خلفهم نجد من يتهم الإمام بالتشيع وهذا من أعجب العجب فمن صدرت منه كل هذه الأقوال في حق الشيعة كيف يتهم بالتشيع وقد مر بنا موقفه من الصحابة عموماً وموقفه من الخلفاء الراشدين وموافقته لأهل السنة في ترتيب الخلفاء فكيف ينسب إلى التشيع [8].

قال البيهقي: ومما حكى عن أبي داود السجستاني أن أحمد بن حنبل أخبر أن يحيى بن معين ينسب الشافعي إلى التشيع، فقال أحمد: تقول هذا لإمام المسلمين قال يحيى: إني نظرت في كتابه في

(1) مناقب ابن أبي حاتم ص 314، منهج الإمام الشافعي ص 453.
(2) توالي التأسيس ص 73.
(3) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 480.
(4) آداب الشافعي ومناقبه ص 189.
(5) مناقب البيهقي (468/1).
(6) تفسير القرطبي (32/18).
(7) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 487.
(8) المصدر نفسه ص 487.

قتـال أهل البغـي، فإذا قد احتج من أولـه إلـى آخره بعلـيرفقال أحمد: عجباً لك، فيمن كـان يحتج الشافعي في قتال أهل البغي، وأول من ابتلى من هذه الأمة بقتال أهل البغي علي بن أبي طالب، وهو الذي سن قتالهم وأحكامهم ليس عن النبـي ρ ولا عن الخلفاء غيره فيه سنة فيمن كـان يستن فخجل يحي من ذلك[1]، وروى البيهقي بسنده عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل وسئل عن محمد بن إدريس الشافعي قال أحمد: لقد من الله علينا به لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا الشافعي، فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره وقد جالسناه الأيام والليالي، فما رأينا معه إلا كل خير رحمة الله عليه فقال لـه رجل: يا أبا عبد الله فإن يحيى بن معين وأبا عبيد لا يرضيانه: يعني في نسبتهما إياه إلى التشيع فقال أحمد لمن حولـه: اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم وحرمه قرناءه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه. وبئست الخصلة في أهل العلم [2].

وقال ابن كثير بعد ذكر بعض النصوص من عقيدة الإمام الشافعي في الخلفاء وفيها موافقته لأهل السنة في ذلك: فهذه أسانيد صحيحة، ونصوص صريحة عن الإمام أبي عبد الله الشافعية في مذهب أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً [3]. فتبين لهذا قول أحمد بن عبد الله العجلي في الشافعي إنه شيعي وهذا القول من العجلي مجازفة بلا علم وإنما غرّه في ذلك ما قدمناه من أن أهل اليمن لما رموه في جملة أولئك القرشيين وحمل معهم إلى الرشيد وكانت فيهم تشيع اعتقد من لا يعلم أن الشافعي إذ ذاك على مذهبهم وإلا فالإمام الشافعي أعظم محلاً وأجلّ قدراً من أن يرى رأي الشيعة الرافضة وهو ذو الفهم التام والذكاء الزايد والحفظ الخارق والفكر الصحيح والعقل الرجيح ثم ذكر الأدلة على متابعته لمذهب السلف من الصحابة... ثم ذكر الأبيات الموهمة لتشيعه وهي:

يـا راكبـا قـف بالمحصـب مـن منـى ::: واهتـف بقاعـد خيفهـا والنـاهض
سـحراً إذا فـاض الحجـيج إلـى منـى ::: فيضـا كملـتطم الفـرات الفـائض
إن كـان رفضـاً حـب آل محمـد ::: فليشـهد الـثقلان أنـي رافضـي [4]

ثم قال: قلت: ليس برفض حب آل محمد وكل أهل السنة يحبون آل محمد ρ ويجب عليهم ذلك كما يجب عليهم حب أصحاب رسول الله ρ أجمعين ومع حب الآل يقدم أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي كل نص عليه الشافعي وأئمة الإسلام [5]. وكما رد ابن كثير هذه التهمة فقد ردها الذهبي حيث يقول: من زعم أن الشافعي يتشيع فهو مفتر لا يدري ما يقول.

وقال: لو كان شيعيًّا وحاشاه من ذلك لما قال الخلفاء الراشدين خمسة بدأ بالصديق وختم بعمر بن عبد العزيز [6]، والصحيح أن خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن عليروقد بينت ذلك في كتابي

(1) مناقب البيهقي (450/1 - 541).
(2) مناقب البيهقي (259/2).
(3) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 492.
(4) طبقات السبكي (299/1).
(5) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 493.
(6) السير (58/10، 59).

عن الحسن بن علي ونقلت أقوال أهل العلم في ذلك. ومما يشهد للشافعي على سلامته من عقيدة الشيعة غير ما سبق رده على زعم الشيعة أن النبي ρ نص على إمامة علي رقوله: من كنت مولاه فعلي مولاه [1]، فقال يعني بذلك ولاء الإسلام وذلك قول الله تعالى: {**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ**} [محمد: 11]. وبهذا يتبين لنا براءة الإمام الشافعي مما اتهم به من التشيع وبعده عن ذلك، وموافقته لمذهب أهل السنة والجماعة [2]. قال الإمام سحنون لم يكن في الشافعي بدعة، فصدق والله فرحم الله الشافعي وأين مثل الشافعي والله في صدقه وشرفه ونبله وسعة علمه وفرط ذكائه ونصره للحق وكثرة مناقبه رحمه الله تعالى[3].

إن تراث الإمام الشافعي في العقائد تلقته الأمة بالقبول لموافقته منهج أهل السنة والجماعة، واستفادة منه المدارس النظامية في عهد السلاجقة وساهم في البعث الحضاري للأمة وكان من اللبنات التي أسست البناء الشامخ لأهل السنة، والذي ساهم في صد المد الباطني الرافضي الذي كانت تدعمه الدولة الفاطمية وكان فكر الإمام الشافعي وتراثه الفقهي من الأسس المهمة التي بنى عليها مشروع النهوض والتصدي للصليبيين في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك ومن الدروس المهمة التي نستخرجها أهمية التراث الفكري والعقائدي للعلماء في بناء النهوض الحضاري، فلربما يساهم تراث بعض المصلحين في نهضة الأمة بعد وفاته بقرون، كالذي نراه في دراستنا الحالية لسيرة الإمام الشافعي؛ ولذلك اعتبره بعض الباحثين من المجددين لكون كتبه وآثاره ذائعة مشهورة، وأحدث نقلة نوعية في حياة الناس، فلعل أحداً من المجددين لم يبلغ الإمام الشافعي في ذلك، فقد ذاع صيته، وطارت شهرته في الآفاق، وتناقل العلماء وطلبة العلم كتبه، ورحل إليه أهل الحديث والفقه من شتى أطراف العالم الإسلامي، ليأخذو عنه العلم وظلت كتبه وآثاره محجة للأجيال التي جاءت من بعده وإلى يوم الناس هذا [4].

ثامناً: عناصر المنهج في فقه الإمام الشافعي:

يسير البحث عند الإمام الشافعي - رحمه الله - في الموضوعات والمسائل الفقهية بطريقة منتظمة وفق الخطوات التالية:

1- استقراء آيات الكتاب الحكيم.
2- استقراء السنة المطهرة، والآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم.
3- الاعتماد على اللغة العربية في فهم النصوص.
4- تطبيق القواعد الأصولية.
5- الاستدلال بالمعقول ومظاهره.

(1) مسند أحمد (84/1) إسناده صحيح، صحيح الجامع رقم 6399.
(2) منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة ص 494.
(3) سير أعلام النبلاء (93/10 - 94، 95) بتصرف.
(4) التجديد في الفكر الإسلامي ص 95.

6- ضبط المسائل والأحكام المستنبطة بالقواعد والضوابط الفقهية.

7- التوضيح بالفروق الفقهية. فهذه أهم عناصر المنهج في فقه الإمام الشافعي [1]، وقد تحدث عنها وشرحها بالتفصيل الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان في كتابه منهجية الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه وأصوله تأصيل وتحليل.

تاسعاً: هل الإمام الشافعي من المجددين؟

توفرت في الإمام الشافعي مآثر وصفات رفعته إلى مصافِّ المجددين ولعل من أبرزها:

1- دفاعه عن عقيدة النبي ρ وأصحابه وحربه للمنحرفين عنها.

2- تدوينه علم أصول الفقه: ويعد الشافعي أول من صنَّف في أصول الفقه، وأرسى قواعده بلا اختلاف ولا ارتياب، وذلك في كتابه " الرسالة ".

3- نصرته للسنة: وقد برزت نصرته للسنة في عدة ميادين.

أ- وضعه لقواعد أصول الحديث يقول أحمد شاكر: وليس كتاب الرسالة أول كتاب ألف في علم أصول الفقه، بل هو أول كتاب في علم أصول الحديث، لأن ما عرض له الشافعي في كتاب الرسالة من بيان لحجية خبر الواحد، وشروط صحة الحديث، وعدالة الرواة، وردَّ الخبر المرسل والمنقطع إلى غير ذلك، هو أدق وأغلى ما كتب العلماء في أصول الحديث، بل إن المتفقه في علوم الحديث يعرف أن ما كتب بعده، إنما هو فروع منه وعالة عليه وأنه جمع ذلك وصنفه على غير مثال سبق [2].

ب- تعظيم السنة ورد شبهات المنكرين لحجيتها أو حجية بعضها.

ج- جمعه بين رواية السنة ودرايتها: فقد كان أصحاب الحديث يعنون بالرواية والنقل، أكثر من عنايتهم بالفقه والاستنباط مما جعلهم عاجزين عن المناظرة والمجادلة، وغير قادرين على تزييف طريق أصحاب الرأي، فجاء الإمام الشافعي، فأقام توازناً بين الفقه والحديث، وبين الرواية والدراية، من غير غلو ولا شطط، وأعاد الناس إلى منهج الاعتدال والوسطية لذلك فرح أصحاب الحديث بالشافعي فرحاً شديداً وأثنوا عليه ثناءً حاراً، وسموه ناصر السنة [3]، وقال إبراهيم الحربي: سألت أبا عبد الله عن الشافعي فقال: حديث صحيح ورأي صحيح [4]. وقال محمد بن الحسن: إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي، يعني لما وضع من كتبه [5]، وقال أحمد: ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني أحاديث رسول الله ρ فبيَّنها لهم [6].

---

(1) منهجية الإمام محمد بن إدريس الشافعي ص 31.

(2) تحقيقات كتاب الرسالة للإمام الشافعي، أحمد شاكر ص 13.

(3) التجديد في الفكر الإسلامي ص 93.

(4) سير أعلام النبلاء (395/8).

(5) تهذيب الأسماء واللغات (71/1).

(6) المصدر نفسه (80/1).

د- إنصافه ورجوعه إلى الدليل وعدم تعصبه: فقد قال: إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ρ فقولوا به ودعوا قولي، فإني أقول به وإن لم تسمعوا مني وفي رواية: فلا تقلدوني. وفي رواية: فلا تلتفتوا إلى قولي. وفي رواية: فاضربوا بقولي عُرض الحائط، فلا قول لي مع رسول الله ρ [1]، وقال الحميدي: روى الشافعي يوماً حديثاً فقلت: أتأخذ به؟ فقال: رأيتني خرجت من كنيسة أو عليَّ زنار حتى إذا سمعت عن رسول الله حديثاً لا آخذ به [2]. وكان يقول لأحمد: يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث، فأعلمني به أذهب إليه حجازياً كان أو شامياً، أو عراقياً أو يمنياً [3].

و- عموم علمه ونفعه أهل الإسلام: ومن خلال ما مضى عن سيرة الإمام الشافعي يتضح لنا أن اختيار نظام الملك لتراث الإمام الشافعي وفقه في مناهج المدارس النظامية كان صحيحاً، وقد كانت جهود الوزير نظام الملك في نصرة المذهب الشافعي ذات أثر بالغ الأهمية في تثبيت دعائمه في المشرق وتزامنت هذه الجهود مع وفرة عدد من كبار فقهاء الشافعية المتبجرين من الذين رسخت أقدامهم في العلم، وليس أدل على المكانة المرموقة التي حظى بها الوزير نظام الملك عند علماء الشافعية من تصنيف إمام الحرمين الجويني - وهو من أكابر الشافعية - كتاباً في أحكام الشريعة وجهه لنظام الملك وسماه بالنظامي، ثم تصنيفه لكتاب الغياثي، والمسمى أيضاً غياث الأمم في التيات الظلم وهو في أحكام السياسة الشرعية كذلك، حيث جعل قسماً كبيراً منه موجهاً للوزير نظام الملك، بعد أن أثنى عليه في مقدمة الكتاب ثناء حسناً ومدحه ببعض أبيات الشعر [4].

* * *

(1) البداية والنهاية نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي ص 94.
(2) المصدر نفسه ص 94.
(3) تهذيب الأسماء واللغات (83/1).
(4) المدخل إلى مذهب الشافعي ص 356، الغياثي ص 10 - 12.